المعالم المنهجية في البحث المهدوي

عند الشريف المرتضى قدس سره

(كتاب المقنع في الغيبة انموذجاً)

■ م.م نور الساعدي

كلية الشيخ الطوسي الجامعة

المقدمة

دراسة منهج شخصية علمية أو آرائها في جانب معرفي ما، لا يمكن عدّه ترفاً فكرياً، أو أنه عمل نهايته أن يركن على رف من رفوف المكتبات العلمية كما يرى بعض الباحثين، بل تكمن أهمية هكذا دراسات في الوقوف على الكيفية والسبل التي سلكتها تلك الشخصيات في معالجة أو بحث أي قضية، ومن ثَمَّ يمكن اعتماد تلك السبل والاتجاهات في معالجة قضايا مستجدة مشابهة لسابقتها في الباب نفسه.

بعبارة أُخرى ان دراسة مناهج العلماء في العقيدة أو التفسير أو الفقه أو في أي مجال آخر، ما هي الا دراسة للقواعد العامة التي اعتمدوها في مؤلفاتهم والأُسس التي انطلقوا منها وشيدوا عليها عطاءهم العلمي، والمعالجات التي وضعوها لإشكالية أو

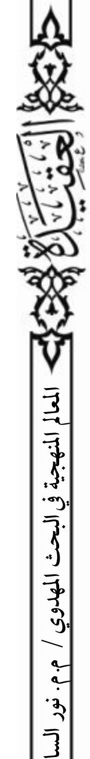
شبهة أو حتى نظرية جديدة، والتي بمعرفتها يمكن توظيفها في القضايا المعاصرة أو نقدها وتفنيدها أو حتى تصحيحها وتطويرها.

وبناءً على تلك الرؤية اهتمت كثير من الدراسات بدراسة شخصية الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت٤٣٦هـ) الذي (حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه، وسمع من الحديث فأكثر، وكان متكلماً شاعراً، أديباً، عظيم المنزلة في العلم و الدين و الدنيا)[١]، وبتراثه المعرفي في جوانب متعددة إما بتحليل وإما بنقد وإما بوقوف على منهج سلكه في كتاب من كتبه.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك فحسب، بل امتدت إلى دراسة طبيعة عصره وهو من أهم عصور الازدهار الحضاري في التاريخ الإسلامي، خاصة في مجال علم الكلام الذي نحى منحى جديدا في القرن الخامس الهجري لما شهده من (ظهور جملة من التيارات الفكرية، التي بدت أوضح صورها وأثقلها في مدرستي الأشاعرة والمعتزلة)[٢] ، اتسم بالاستدلال العقلي تارة، وبالنص الديني ثانية وبهما معا تارة اخرى.

ومن هنا جاءت اهمية دراسة منهج الشريف المرتضى في كتابه (المقنع في الغيبة) الذي عالج قضية تعد من ركائز مذهب الإمامية الإثني عشرية، ألا وهي قضية الإمام المهدي المنتظر خاصة في مقام إثبات ولادته وغيبته. عبر مباحث ثلاثة كان الأول في: اهتمام الشريف المرتضى ببحث القضية المهدوية، والثاني في: منهجية الشريف المرتضى في كتابه المقنع، أما الثالث فكان في: آرائه الخاصة في الغيبة ومن اعتمد عليها، ثم خاتمة بيّنت أهم نتائج البحث.

ومن الله التوفيق..



المبحث الأول
اهتمام الشريف المرتضى ببحث القضية المهدوية

كانت غَيْبة الإمام الثاني عشر المهديّ المنتظر عليه السلام، من أهمّ المحاور التي دارت عليها البحوث الكلامية منذ بداية عصر الغَيْبة الكبرى سنة ٣٢٩هـ وحتى يومنا هذا، إذ أخذت أبعاداً مختلفة حسب ما تقتضيه الحاجة والظروف المحيطة خلال الفترات الزمنية المختلفة(٣)، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الانتقال من مرحلة حضور الإمام والاتصال به ولو بشكل جزئي وخاص كما هو الحال في الغيبة الصغرى إلى مرحلة خفاء الإمام وانقطاع الاتصال به بشكل تام وهو ما حصل في الغيبة الكبرى.

ولذلك فإن بحث الغيبة أخذ اهتماما كبيرا من التأليف والبحث في القرنين الرابع والخامس الهجريين لما شهدته تلك الحقبة من نهضة علمية وأدبية واسعة، فضلاً عمّا كانت تشهده من نزاعات سياسية وخلافات دينية ومذهبية ألقت بظلالها على المسائل الكلامية(٤)، لاسيما فيما يخص الإمامة عامة والإمام الثاني عشر خاصة. فكان لمتكلّمي الإمامية آنذاك كمعلّم الأمّة الشيخ المفيد (٣٣٦- ٤١٣هـ) والشريف المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) وشيخ الطائفة الطوسي (٣٨٥- ٤٦٠ هـ) أثر متميّز في بيان مسائل عقيدة إمام الزمان وغيبته وانتظاره.

ولأنّ البحث حول منهج الشريف المرتضى في كتابه المقنع في الغيبة أولاً، وما له من أثر واضح في بيان مسائلها ثانياً؛ كان لزاماً الحديث عن مؤلفاته التي اهتمت بالإمام الثاني عشر إمّا ضمنا أو بشكل مستقل كي يكون مدخلا لدراسة منهجه في الكتاب مورد البحث، وكما يأتي:

- **أولاً: مؤلفاته الكلامية التي تضمنت مباحث عن المهدي المنتظر** عليه السلام:

ركّز الشريف المرتضى على منحيين في منظومته الكلامية(٥):



المنحى الأول: منازلاته مع القاضي عبد الجبّار المعتزلي (٣٥٩ – ٤١٥هـ)، المنظّر الكبير للفكر الاعتزالي، وبالخصوص في كتابه المغني في أبواب التوحيد والإمامة وبالأخصّ ما يتعلّق منه بالإمامة (المجلّد العشرون بقسميه الأول والثاني).

المنحى الثاني: منهج المنطق التنزيهي المطابق للأُصول العقلية عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وبالخصوص في كتابه القيّم تنزيه الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

وكل من هذين المنحيين سلكهما في بحث غيبة إمام الزمان في الكتب الاتية:

١ ـ الفصول المختارة : إذ تضمن فصلاً في افتراق أصحاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام بعد وفاته في شأن المهدي المنتظر عليه السلام إلى اربعة عشر فرقة وفقاً لما نقله الشيخ المفيد[٦]، وفصلاً في الرد على الفرقة القائلة بمهدوية الإمام العسكري عليه السلام[٧].

٢ ـ ذكر الشريف المرتضى في مقدمة كتابه المقنع في الغيبة أنه تعرض لبحث مسائل الغيبة في كتابيه (الشافي في الإمامة) و(تنزيه الانبياء والأئمة) بقوله: (كنتُ قد أودعتُ الكتاب الشافي في الإمامة وكتابي في تنزيه الأنبياء والأئمّة عليهم السلام من الكلام في الغَيْبَة ما فيه كفاية[٨]، وهداية لمن أنصف من نفسه وانقاد لإلزام الحجّة، ولم يجِرْ تحيّر عاندٍ عن المحجّة)[٩].

من هنا يتضح أمران هما:

أ. انّ تأليف الشافي وتنزيه الانبياء والائمة الذيّن ردّ فيهما آراء المعتزلة سبقا تأليفه للمقنع.

ب. يدل كلام الشريف المرتضى على أهمية مسائل الغيبة التي اوفى الكلام فيها بما فيه الكفاية في كتابيه المذكورين ومع ذلك ألف المقنع وخصصه في مسائل الغيبة ومايتعلق بها.

٣ ـ رسائل الشريف المرتضى وهي مجموعة من الاسئلة التي وردت إليه وردّ

عليها، إذ كان منها ثلاث رسائل في الغيبة(١٠)، والتي أحال فيها سائله عن الغيبة إلى كتابيه المقنع والشافي بقوله: (إعلم أن كل مسألة تتعلق بالغيبة من هذه المسائل، فجوابها موجود في كتابنا (المقنع في الغيبة) وفي الكتاب (الشافي) الذي هو نقض كتاب الإمامة من الكتاب المعروف بـ(المغني) ، ومن تأمل ذلك وجده إما في صريحهما أو فحواهما)(١١).

٤ ـ الذخيرة في علم الكلام والذي ذكر فيه ماتبتني عليه الإمامة من أصلين وهما العصمة والحياة، وهذان الاصلان جعلهما ايضا ركيزتين للغيبة(١٢).

● **ثانياً: كتاب المقنع في الغيبة والزيادة المكملة له:**

تبيّن مما سبق مكانة الكتاب وأهمّيته من خلال إحالة الشريف المرتضى إليه في رسائله من جهة، وتخصصه بالغيبة التي تعد من الامور المركزية والاساسية في قضية الإمام المهدي المنتظر عليه السلام من جهة أخرى.

وقد أخذ الكتاب عناية خاصة من قبل كل من بحث موضوع الغيبة وألّف فيها إذ أصبح مصدرا مهما من مصادر البحث والتأليف فيما يخص موضوعه(١٣).

أما سبب تأليف الكتاب فهو كما قال الشريف المرتضى في أول كتابه: «جرى في مجلس الوزير السيّد أطال الله في العزّ الدائم بقاءه، وكبت حسّاده وأعداءه كلام في غَيْبة صاحب الزمان أَلْمْتُ بأطرافه؛ لأنّ الحال لم تقتض الاستقصاء والاستيفاء، ودعاني ذلك إلى إملاء كلام وجيز فيها»(١٤)، وجاء في الذريعة ان السيد المرتضى كتب المقنع في الغيبة للوزير المغربي وهو أبو الحسن عليّ بن الحسين بن علي بن هارون ابن عبد العزيز الأراجني، كما يظهر من النجاشي في ترجمة جدّه الأعلى هارون بن عبدالعزيز(١٥).

والملاحظ من كلام الشريف المرتضى في مقدمة كتابه انه جاء على نحو الاجمال لا التفصيل لقوله: (أَلْمَمْتُ بأطرافه ؛ لأنّ الحال لم تقتض الاستقصاء والاستيفاء) لأنه ترك التفصيل في كتابه الشافي، ومع ذلك تضمن الكتاب على صغر حجمه اثبات غَيْبة الإمام المهدي عليه السلام وعللها وأسبابها والحكمة الإلهية التي اقتضتها، والتشابه بين غيبته وغيبة الانبياء السابقين، وظهور الإمام عليه السلام وعلمه بساعة ظهوره وغيرها من المسائل.

كما ان بعض المسائل التي بحثها الشريف المرتضى في كتابه المقنع بحثا عقليا بحثها استاذه الشيخ المفيد عقلا ونقلا بتفاوت بسيط(١٦).

ولم يجد الباحث كتاباً آخر استقلّ به الشريف المرتضى في بحث قضية الإمام المنتظر وغيبته وما يتعلق بها سوى المقنع ، ولعل هناك ما هو مخطوط في هذا المجال ولم ير النور إلى الآن.

المبحث الثاني
منهجية الشريف المرتضى في كتابه المقنع

انتهج الشريف المرتضى في كتاب المقنع منهج الاستدلال العقلي الذي تميز بمعالم تجديدية عديدة، ولعل بسبب تلك المعالم عبّر الشريف المرتضى في الزيادة المكملة للمقنع انه انتهج طريقة غريبة بقوله (ثم استأنفنا في (المقنع) طريقة غريبة لم نسبق إليها)(١٧) وقوله : «لم نسبق اليها» فيه دلالة على البعد الجديد الذي انتهجه المرتضى في بيان مسألة الغيبة على وجه الخصوص.

كما ان الشريف المرتضى اعتمد منهج الجدل الاقناعي القائم على (ان قلت قلنا) وهو من المناهج الكلامية التي لم يسبقه إليها أحد من أساتذته.

أما أهم السمات المنهجية لكتاب المقنع فهي:

● **أولاً: السمة النقدية:**

الاتجاه النقدي الذي اتبعه الشريف المرتضى من اول صفحات كتابه يجعل القارئ امام مجموعة من الأدلّة التي ترد الرأي الاخر وتثبت ما يريد الشريف المرتضى اثباته باسلوب موضوعي مقنع، ففي قوله: (وإني لأرى من اعتقاد مخالفينا: «صعوبة الكلام في الغيبة ... وقوته في جهتهم، وضعفه من جهتنا» عجبا! والأمر بالضد من ذلك وعكسه عند التأمل الصحيح، لأن الغيبة فرع لأصول متقدمة، فإن صحت تلك الأصول بأدلتها، وتقررت بحجتها، فالكلام في الغيبة أسهل شئ و أقربه و أوضحه)(١٨).

لا ينقد الادعاء بتعجب فقط بل يعطي القواعد المنهجية في كيفية الادعاء، إذ ان القوة أو الضعف في الكلام بالغيبة انما يكون بناء على مدى رصانة المقدمات وقوّتها التي تسبقها؛ لأنّها (فرع لأصول متقدّمة) وبما انّ تلك الأُصول لم تحكّم ادلتها عند المدعي فلا كلام في الفرع لانه مبني على أصل هو الآخر بحاجة إلى إحكام أدلته، وهذا ما بينه الشريف المرتضى بقوله: (فإن صحّت تلك الأُصول بأدلّتها، وتقرّرت بحجّتها، فالكلام في الغَيْبة أسهل شيء وأقربه وأوضحه، لأنّها تبتني على تلك الأُصول وتترتّب عليها، فيزول الإشكال، وإنْ كانت تلك الأُصول غير صحيحة ولا ثابتة، فلا معنى للكلام في الغَيْبة قبل إحكام أُصولها، فالكلام فيها من غير تمهيد تلك الأُصول عبثٌ وسَفَه)(١٩).

والمتأمل في النص المذكور يجد ان الشريف المرتضى يعطي قاعدة نقدية في المسائل الكلامية يمكن الرجوع إليها في نقد أي ادعاء عقائدي من جهتين:

الجهة الأولى: جهة الادعاء قبل ان تدعي على الآخر لابدّ أن تكون الدعوى محكمة لأُصولها العقائدية من ناحية الأدلّة والمتعلقات كي لا تُنقد بما تَنتقد به الآخر.

الجهة الثانية: جهة المدعى عليه قبل ان تأتي لرد الشبهة الموجهة لها، لابدّ من أن تنظر إلى الأُسس العقائدية التي ينطلق منها الآخر ومدى توافقها واتفاقها مع الأُسس العقائدية التي تؤمن بها.

ولذلك يقول المرتضى: (فإنْ كان المخالف لنا يستصعب ويستبعد الكلام في الغَيْبة قبل الكلام في وجوب الإمامة في كل عصر وصفات الإمام ، فلا شكّ في أنّه صعب ، بل معوز متعذّر لا يحصل منه إلاّ على السراب، وإنْ كان مستصعِباً مع تمهّد تلك الأُصول وثبوتها، فلا صعوبة ولا شبهة، فإنّ الأمر ينساق سَوقاً إلى الغَيْبة ضرورةً إذا تقرّرت أُصول الإمامة)[٢٠].

ومن الفقرات المتقدمة يتضح ان الشريف المرتضى لم يرد الشبهة التي تضمنها الادعاء ـ وهي قوة كلام المخالف في الغيبة وضعفه عند الإمامية ـ مباشرة، بل قدّم نقدا عقليا في كيفية بناء الادعاء، وهذا بحد ذاته يجعل القارئ أمام عقلية نقدية دقيقة في تعاملها مع المسائل الكلامية.

- **ثانياً: الجمع بين النظرية والتطبيق :**

بعد ان بيّن الشريف المرتضى ان الغيبة تبتني على أصلين هما وجوب الإمامة في كل زمان والعصمة بقوله: «إنّ العقل قد دلّ على وجوب الإمامة ، وإن كلّ زمان كُلِّف فيه المكلَّفون الّذين يجوز منهم القبيح والحسن، والطاعة والمعصية لا يخلو من إمام ، وإنّ خلوّه من إمام إخلال بتمكينهم ، وقادح في حسن تكليفهم. ثم دلّ العقل على أنّ ذلك الإمام لا بُدّ من كونه معصوماً من الخطأ والزلل ، مأموناً منه فِعْلُ كل قبيح»[٢١]، ثم ساق الأدلّة على صحة هذين الأصلين حتى قال: «وإذا ثبت هذان الأصلان : فلا بُدّ من إمامة صاحب الزمان بعينه، ثمّ لابدّ مع فقد تصرّفه وظهوره من القول بغَيْبته»[٢٢].

إذ جعل للغيبة قاعدة تقوم عليها، جاء لتلك القاعدة وطبقها على من ادعى



المهدوية أو اُدعيت له كالكيسانية والناووسية والواقفة بقوله: (فإن قيل : كيف تدّعون أنّ ثبوت الأصلين اللذين ذكرتموهما يثبت إمامة صاحبكم بعينه ، ويجب القول بغَيْبته ؟! وفي الشيعة الإمامية ـ أيضاً ـ من يدّعي إمامة من له الصفتان اللتان ذكرتموهما وإنْ خالفكم في إمامة صاحبكم ؟! كالكيسانية القائلين بإمامة محمّد بن الحَنَفِيّة، وأنّه صاحب الزمان ، وإنّما غاب في جبال رَضْوى انتظاراً للفرصة وإمكانها ، كما تقولون في قائمكم، وكالناووسية: القائلين بأنّ المهديّ المنتظر أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام . ثمّ الواقفة القائلين بأنّ المهديّ المنتظر موسى بن جعفر عليه السلام ؟! قلنا : كلّ مَنْ ذكرتَ لا يُلتفت إلى قوله ولا يُعبأ بخلافِه ؛ ..لأنّ العلم بموت ابن الحنفيّة كالعلم بموت أبيه وإخوته صلوات الله عليهم. وكذلك العلم بوفاة الصادق عليه السلام كالعلم بوفاة أبيه محمّد عليه السلام والعلم بوفاة موسى عليه السلام كالعلم بوفاة كلّ متوفّىً من آبائه وأجداده وأبنائه عليهم السلام فصارت موافقتهم في صفات الإمام غير نافعة مع دفعهم الضرورة وجحدهم العيان)(٢٣).

فالشريف المرتضى هنا يفرق بين الغيبة بسبب الموت وبين الغيبة التي هي خفاء شخص الإمام عن الانظار في اثناء حياته لاي سبب من الأسباب، وهذا التفريق يأتي بيانه من خلال تطبيقه اصول الغيبة على من ادعي غيابه مع فقدانه شرط الحياة، مما يعني ان المرتضى يسعى إلى اثبات ان حياة المهدي المنتظر شرط من شروط إمامته وغيبته وهو بهذا لايردّ ادّعاء الفرق المذكورة اعلاه فقط، وإنما يردّ ادعاء القائلين بإمامة المهدي المنتظر في آخر الزمان ولكنه لم يولد بعد.

- **ثالثاً: اعتماده منهج المخالفين في رد شبهاتهم:**

اعتمد الشريف المرتضى في بيان الغيبة واثبات وجود وإمامة إمام الزمان منهج المخالفين للإمامية في ذلك لاسيما المعتزلة ، إذ يقول: (فلا تنسوا ما لا يزال شيوخكم يعتمدونه، من ردّ المشتبه من الأُمور إلى واضحها، وبناء المحتمل منها على ما لا يحتمل،

والقضاء بالواضح على الخفيّ، حتّى أنّهم يستعملون ذلك ويفزعون إليه في أُصول الدين وفروعه فيما طريقه العقل وفيما طريقه الشرع، فكيف تمنعوننا في الغَيْبة خاصّة ما هو دأبكم ودينكم ، وعليه اعتمادكم واعتضادكم. . فلا تنقضوا بدفعنا في الغَيْبة عن النهج الذي سلكناه أُصولَكم بفروعكم)(٢٤).

والمنهج الذي يقصده الشريف المرتضى هو ضرورة الكلام في الإمامة أولاً، ومن ثَمَّ الكلام في غيبة إمام الزمان لأن:

١. (الكلام في الغَيْبة مع الكلام في إمامة صاحب الزمان عليه السلام يجري في أنّه أصل وفرع بمجرى الكلام في إيلام الأطفال ، وتأويل المتشابه ، والكلام في حكمة القديم تعالى ، فواجب تقدّم الكلام في إمامته على الكلام في سبب غَيْبته من حيث الأصل والفرع)(٢٥).

٢. الإمامة من الامور الواضحة البينة التي ليس فيها احتمال أو تجاذب أما الكلام (في سبب الغَيْبة ووجهها، ففيه من الاحتمال والتجاذب ما ليس في الطريقة التي ذكرناها في إمامة ابن الحسن عليه السلام ؛ لأنّها مبنيّة على اعتبار العقل وسبر ما يقتضيه ، وهذا بيّنٌ لمن تأمّله)(٢٦).

فمنهج ارجاع المشتبه إلى الواضح هي طريقة العقل في معالجة ذلك المشتبه، وهو المنهج ذاته الذي اعتمده المعتزلة في معالجة المسائل الكلامية فعاب عليهم الشريف المرتضى تجويزهم ذلك المنهج لانفسهم ونقضه على غيرهم مما يعني انه انتهج منهج: ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم. وهذا ما أشار له البحث في السمة النقدية لكتاب المقنع.

كما ان الشريف المرتضى هنا يضع قاعدة مفادها ان نقد أو ردّ أي معتقد لابدّ من أن يكون على وفق مباني ذلك الاعتقاد وإلا لن يكون الرد ملزماً له ومن ثَمَّ لا ثمرة منه البتة.

• رابعاً: القراءة العقلية للأدلّة النقلية:

يقول الشريف المرتضى: انّ (الأخبار يجب ان تبنى على أدلّة العقول)[٢٧] ولعل ما يريده هو الأخبار المتعلقة بالأُصول لا بالفروع، ولذلك عمد في بيان علة غيبة إمام الزمان بالاستدلال العقلي المستقى من الأدلّة النقلية التي لم يوردها في كتابه لإمكانية دفعها وإدخال الشبهة فيها، والتي يحتاج في حلّها إلى ضروب من التكلف كما عبر الشريف المرتضى في اول كتابه، وهذه السمة هي من مميزات منهجه الكلامي عموما، إذ بيّن علة الغيبة بنحوين:

الأول: على نحو الاجمال إذ ان عدم بيان سبب الغيبة لا يخلّ بصحة الاعتقاد بها؛ لأنّنا إذا اعتقدنا بأن الله لا يفعل القبيح فإنا لسنا بحاجة لمعرفة علة الغيبة والحكمة منها وذلك لحكمة منه سبحانه تطابق العقل وإن لم نحط بها، كما هو الحال بين المعنى الظاهر للآيات المتشابهة والمعنى الواقعي لها وإن بدا بينهما تعارض ظاهر إلا (أنّ ما دلّ عليه العقل وقطع به على صحّته يقود ويسوق إلى القطع على أنّ للآيات مخرجاً صحيحاً وتأويلاً للعقل مطابقاً، وإنْ لم نحط علماً به، كما يقود ويسوق إلى أنّ للغَيْبة وجوهاً وأسباباً صحيحة، وإن لم نحط بعلمها)[٢٨].

وهذا المعنى نجده في حديث عبد الله بن الفضل الهاشمي، قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: (ان لصاحب هذا الأمر غيبة لابد منها يرتاب فيها كل مبطل. فقلت: ولم جُعلت فداك؟ قال: لأمر لم يؤذن في كشفه لكم. قلت فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال: ... إنّ وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلّا بعد ظهوره...ومتى علمنا انه عزّ وجلّ حكيم صدّقنا بأن أفعاله كلها حكمة وان كان وجهها غير منكشف لنا)[٢٩].

الثاني: على نحو التفصيل ببيان ان سبب الغيبة انما كان لأجل الاجابة على سؤال السائل بالتفصيل والا فإن الاجمال المذكور على النحو الأول يفي بالغرض، من هنا بيّن ان من أسباب غيبة إمام الزمان هو الخوف على نفسه من الظالمين، وهذا ما جاء

في الروايات المنقولة عنهم عليهم السلام منها ما ورد عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: (إن للغلام غيبة قبل ظهوره، قلت : ولم ؟ قال : يخاف وأومأ بيده إلى بطنه، قال زرارة : يعني القتل)(٣٠)، إلا ان الشريف المرتضى وضح ان دفع الضرر عن النفس هو أمر عقلي وله صور متعددة منها الاستتار عن أنظار من يريد به الضرر إذ قال: (أمّا سبب الغَيْبة فهو: إخافة الظالمين له عليه السلام ... فإذا خاف على نفسه وجبت غَيْبته ولزم استتاره ومَنْ هذا الذي يُلْزِمُ خائفاً أعداؤه عليه، وهم حنقون أن يظهر لهم وأن يبرز بينهم ؟! والتحرّز من المضارّ واجبٌ عقلاً وسمعاً)(٣١).

هذه الشواهد من كتاب المقنع وغيرها كثير فيها دلالة على ان الشريف المرتضى قد صاغ الأدلّة النقلية في الغيبة صياغة عقلية تسهم إسهاماً واضحاً في بيان منهجه الإقناعي.

- **خامساً: توظيف الحدث التاريخي في بيان علة الغيبة :**

من المسائل التي يجدر بالقارئ لكتاب المقنع الوقوف عندها هي مسألة توظيف الحدث التاريخي في بيان علة غيبة إمام الزمان وبيان وجه التشابه بينها وبين غيبة الانبياء عليهم السلام، إذ قال الشريف المرتضى: (وقد استتر النبيّ صلى الله عليه وآله في الشِعب مرّة، وأُخرى في الغار، ولا وجه لذلك إلاّ الخوف من المضارّ الواصلة إليه)(٣٢). وذكر وجه الاتفاق بين الغيبتين بقوله: (لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله إنّما استتر في الشِعْب والغار بمكّة، وقبل الهجرة ، وما كان أدّى صلى الله عليه وآله جميع الشريعة ، فإنّ أكثر الأحكام ومعظم القرآن نزل بالمدينة.. وإذا جاز استتاره صلى الله عليه وآله مع تعلّق الحاجة إليه لخوف الضرر، وكانت التبعة في ذلك لازمة لمخيفه ومحوجيه إلى التغيّب، سقطت عنه اللائمة، وتوجهت إلى مَنْ أحوجه إلى الاستتار وألجأه إلى التغيّب، وكذلك القول في غَيْبة إمام الزمان عليه السلام (٣٣).

وكأن الشريف المرتضى هنا يريد الاشارة إلى ان خوف الإمام عليه السلام على نفسه من الاعداء هو ليس لأغراض شخصية بل هو خوف على مصير الرسالة والمهمة

الإلهية الموكلة إليه.

كذلك فإن المقارنة بين غيبة الرسول صلى الله عليه وآله والانبياء السابقين وبين غيبة الإمام عليه السلام هي احدى الامور التي بينتها الروايات الواردة عن اهل البيت عليهم السلام في بيان مافي الإمام المنتظر عليه السلام من سنن الانبياء السابقين، وهذا ما افرده الشيخ الصدوق بالبحث والتفصيل في كتابه إكمال الدين واتمام النعمة عند ذكره غيبة ادريس ونوح وابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام (٣٤).

لذا يمكن الالتفات إلى اهمية فهم الحدث التاريخي وفلسفته وتوظيف غاياته في بيان المسائل الاعتقادية الخلافية، إذ انها تعد من الأدلّة التي يمكن الاتفاق عليها بين الأطراف المختلفة.



المبحث الثالث
آراؤه الخاصة في الغيبة ومن اعتمد عليها

من الآراء الخاصة والاجوبة التي تفرّد بها الشريف المرتضى في بيان مسألة غيبة إمام الزمان عليه السلام هو مايتعلق بغيبته عليه السلام عن أوليائه؛ إذ عدّ جواب علماء الإمامية (بأنّ علّة غيْبته عن أوليائه لا تمنع أن يكون خوفه من أن يلقاهم فيشيعوا خبره ، ويتحدّثوا سروراً باجتماعه معهم ، فيؤدّي ذلك وإن كان ذلك غير مقصود إلى الخوف من الأعداء)(٣٥) جواب غير مرضي عقلا، مما يعني ان النقد العقلي لدى الشريف المرتضى حاضر بشدة حتى على اجوبة علماء الإمامية ممن سبقوه أو عاصروه.

كذلك قولهم بأن (سبب الغَيْبة عن الجميع هو فعل الأعداء ؛ لأنّ انتفاع جماعة الرعيّة من وليٍّ وعدوٍّ بالإمام إنّما يكون بأن ينفذ أمرُه وتنبسط يدُه ، ويكون ظاهراً متصرِّفاً بلا دافع ولا منازع ،..ولا فائدة في ظهوره سرّاً لبعض أوليائه ؛ لأنّ النفع المبتغى من تدبير الأئمّة لا يتمّ إلا بالظهور للكلّ ونفوذ الأمر، فقد صارت العلّة في

استتار الإمام وفقد ظهوره على الوجه الذي هو لطفٌ ومصلحةٌ للجميع واحدةٌ)[٣٦] هو أيضاً غير مرضي عند الشريف المرتضى. وقد أرجع سبب رفضه لهذه الاقوال بما يأتي:

الأول: لأنّ عقلاء شيعته لا يجوز أن يخفى عليهم ما في إظهار اجتماعهم معه عليه السلام من الضرر عليه وعليهم، فكيف يخبرون بذلك مع العلم بما فيه من المضرّة الشاملة ؟! وإنْ جاز هذا الذي ذكروه على الواحد والاثنين ، لم يجز على جماعة شيعته الذين لا يظهر لهم[٣٧].

الثاني: لأنّ الأعداء إن كانوا حالوا بينه عليه السلام و بين الظهور على وجه التصرّف والتدبير ، فلم يحولوا بينه وبين مَنْ شاء من أوليائه على جهة الاستتار[٣٨].

وقد اقتفى الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ) أثر أُستاذه المرتضى في ذلك، وخصّه بالشرح والتفصيل وذهب لما ذهب له المرتضى من ان سبب الغيبة عن الأولياء من الأولى ان تكون لعلة في اوليائه تمنع ظهوره الشريف لهم لتقصير من جهتهم[٣٩] (كالذي لم ينظر في طريق معرفة الله تعالى فلم يحصل له العلم وجب أن يقطع على انه إنّما لم يحصل لتقصير يرجع إليه)[٤٠]، إذ وضح الشريف المرتضى انه لا قطع على استتار الإمام عن جميع أوليائه بل يجوز ان يظهر لأكثرهم لتمكنهم من رفع علة الغيبة عنهم (وإزالتها فيظهر لهم، وهذه صفات لا بُدّ من أن تحصل لما تعلّل به الغَيْبة)[٤١].

ويفهم من كلام المرتضى أنّ الإمام عليه السلام ظاهر لأوليائه إلا ان منهم من يلحظ هذا الظهور ويدركه ومنهم من يستتر عنه ذلك الظهور تبعا لما في كل منهم من استعداد نفسي و درجة ايمان وصدق معرفة، (فإنّه متى اجتهد في ذلك حقّ الاجتهاد، ووفّى النظر نصيبه غير مبخوس ولا منقوص: فلا بُدّ له من وقوع العلم بالفراق بين الحقّ والباطل. وإذا وقع العلم بذلك: فلا بُدّ من زوال سبب الغَيْبة عن الوليّ. وهذه المواضع الإنسانُ فيها على نفسه بصيرة، وليس يمكن أن يؤمر فيها بأكثر من التناهي في

الاجتهاد والبحث والفحص والاستسلام للحقّ)[٤٢].

وهذا المعنى يشير له قول الإمام المهدي في توقيعه الصادر إلى الشيخ المفيد (..ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا..)[٤٣].

ولايخفى ان الشريف المرتضى هو احد تلامذة الشيخ المفيد مما يشير لاحتمال اخذ الشريف المرتضى معنى غيبة الإمام عن اوليائه من رسالة الإمام عليه السلام نفسه إلى الشيخ المفيد والله العالم.

اعتماد الشيخ الطوسي والطبرسي على آراء الشريف المرتضى في الغيبة:

ذكر محقق كتاب (المقنع في الغيبة والزيادة المكملة له) ان شيخ الطائفة الطوسي قد أورد آراء الشريف المرتضى في كتابه المقنع تارة بالنصّ وأُخرى بإيجاز واختصار، وضمَّنها كتابه «الغَيْبة» في «فصل في الكلام في الغَيْبة» إذ يجدها القارئ مبثوثة فيه، منسوبة إلى المرتضى من دون التصريح باسم «المقنع». وقد ذكر محقق كتاب المقنع مواضع نقل الشيخ الطوسي من كتاب المقنع في مقدمة تحقيقه.

كما نقل أمين الإسلام الشيخ الطبرسي (٥٤٨هـ) مقاطع مهمّة للشريف المرتضى في مسألة الغيبة تارةً بالنصّ وأُخرى بإيجاز واختصار أيضاً، وأودعها في كتابه «إعلام الورى بأعلام الهدى» من المسألة الأولى حتى المسألة الخامسة، من الباب الخامس، تحت عنوان: «في ذكر مسائل يسأل عنها أهل الخلاف في غَيْبة صاحب الزمان عليه السلام ...» ولم يصرِّح أيضاً باسم « المقنع » وإنْ صرّح بنقلها عن الشريف المرتضى[٤٤].

أقول: لعل هؤلاء الأعلام لم يذكروا اسم كتاب المقنع في مؤلفاتهم لسببين:

الأول: للاختصار والاكتفاء بذكر المؤلف وهو الشريف المرتضى وهذا المنهج معروف في القرن الثالث والرابع والخامس الهجرية حتى في مجال الحديث فهم

لايذكرون الأسانيد كاملة ويكتفون بالمتن للاختصار وبعضهم يضعوها في كتاب مستقل ككتاب المشيخة للشيخ الصدوق و العدة للشيخ الطوسي.

الثاني: انّ تلك الآراء التي ذكرها الشيخ الطوسي والطبرسي للشريف المرتضى قد لاتكون منقولة من كتاب المقنع بل لعلها مأخوذة من كتابه (الشافي في الإمامة) وهو سابق للمقنع بحسب قول الشريف المرتضى في مقدمته في بيان قضية الغيبة وعرضها و معالجتها وما أُثير حولها من شبهات.

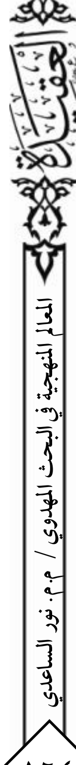
خاتمة البحث

من خلال قراءة كتاب المقنع في الغيبة للشريف المرتضى والنظر في منهج كتابه وكيفية رده على الاسئلة والشبهات حول غيبة إمام الزمان نتوصّل إلى مجموعة نتائج منها:

١. ان الاستدلال العقلي لدى الشريف المرتضى كان هو المنهج المعتمد في بحثه الكلامي عموما وفي كتابه المقنع على وجه الخصوص إذ انه لم يورد دليلاً نقلياً واحداً.

٢. كان اتجاهه في بحث الغيبة اتجاها نقديا مقارنا بين كلام الإمامية في إمامة المنتظر وغيبته وبين المذاهب والفرق الاخرى، مما دعاه إلى التنظير في قضية الغيبة وايجاد مصاديقها في الفرق الاخرى وبيان مدى التطابق بين مفهوم وأُصولها الغيبة وبين من تصدق عليه تلك الاصول.

٣. القراءة العقلية للأدلّة النقلية هي واحدة من اهم مميزات استدلالاته العقلية التي تنبئ عن دقة في قراءة النصوص وكيفية صياغتها على وفق المسلمات العقلية.



٤. اعتماد الشيخ الطوسي على تقريرات الشريف المرتضى في الغيبة تبين بوضوح أهمية تلك التقريرات وأسبقيتها وان كان بعضها أخذها الشريف المرتضى من شيخه المفيد، مما يؤكد بوضوح ان هؤلاء الاعلام الثلاثة قد نظّروا لمسألة الغيبة تنظيرها العقلي ولم يكتفوا بأدلتها النقلية التي بينّها الشيخ الصدوق في كتابه اكمال الدين وإتمام النعمة.

هذه كانت أهم النتائج التي توصل لها الباحث وما التوفيق إلا من عنده سبحانه، وأرجو أنّي وفّقت لبيان أهم سمات ومعالم منهج الشريف المرتضى في كتابه (المقنع في الغيبة)، وما في البحث من نقص فهو نتيجة طبيعية لأي جهدٍ بشري إذ الكمال لله سبحانه..

* مصادر البحث *

١. اكمال الدين واتمام النعمة، الشيخ الصدوق، دار المرتضى، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ

٢. الإمام المهدي في مصادر علماء الشيعة، اعداد وتحقيق مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي، الاعلمي للمطبوعات – بيروت ١٤٣٢ه.

٣. تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي، ٣٣، دار الأضواء، بيروت، ط ٢) ١٤٠٩ ه ١٩٨٩ م.

٤. الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى عليّ بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ) تحقيق السيّد أحمد الحسيني، جماعة المدرّسين ـ قم / ١٤١١ ه.

٥. الذريعة إلى تصانيف الشيعة، للشيخ آقا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩هـ) الطبعة الثانية، دار الأضواء ـ بيروت / ١٤٠٣ ه.

٦. رجال النجاشي، للشيخ أبي العبّاس أحمد بن عليّ النجاشي (٣٧٢ ـ ٤٥٠هـ) تحقيق السيّد موسى الشبيري الزنجاني، جماعة المدرّسين ـ قم / ١٤٠٧ ه.

٧. رسالة في غَيْبة الحجّة (رسائل الشريف المرتضى ـ المجموعة الثانية) للشريف المرتضى عليّ بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ) إعداد السيّد مهدي الرجائي، دارالقرآن الكريم ـ قم / ١٤٠٥ ه.



٨. الشافي في الإمامة ، للشريف المرتضى عليّ بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) تحقيق السيّد عبد الزهراء الحسيني الخطيب ، مؤسسة الصادق ـ طهران / ١٤١٠ هـ ، بالتصوير على طبعة بيروت.

٩. الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي، تنزيه الأنبياء، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٤٠٩ ه ١٩٨٩ م.

١٠. الشريف المرتضى: حياته وثقافته وأدبه، د. احمد محمد المعتوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

١١. الشيخ المفيد (٤١٣هـ)، المسائل العشر في الغيبة، تحقيق الشيخ فارس الحسون، تقديم مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

١٢. الغَيْبة ، لشيخ الطائفة الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) تحقيق الشيخ عباد الله الطهراني والشيخ علي أحمد ناصح ، مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم / ١٤١١ هـ.

١٣. الفصول المختارة، ، للشريف المرتضى عليّ بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦ ه(تحقيق السيد علي مير شريفي.

١٤. المقنع في الغيبة والزيادة المكملة لها، ، للشريف المرتضى عليّ بن الحسين الموسوي (٣٥٥– ٤٣٦هـ) تحقيق السيد محمد علي الحكيم، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم.

١٥. المناهج الروائية عند الشريف المرتضى، وسام الخطاوي، الناشر: دار الحديث للطباعة والنشر، قم ١٤٢٧هـ.

* هوامش البحث *

(١) رجال النجاشي: الرقم: ٧٠٨ / ٢٧٠ –٢٧١ .

(٢) مقدمة محقق كتاب المقنع، السيد محمد علي الحكيم: ٧ .

(٣) نفسه: ١٠

(٤) ظ/ الشريف المرتضى: حياته وثقافته وأدبه: ٢٦ –٢٧.

(٥) المناهج الروائية عند الشريف المرتضى، ١٦٩ .

(٦) ظ/ الفصول المختارة، الشريف المرتضى: ٣١٨– ٣٢١.



(٧) ظ/ نفسه: ٣٢٢-٣٢٧.
(٨) ظ/ الشافي ١ / ٤٤ ـ ٥٤ ، تنزيه الأنبياء والأئمّة : ١٨٠ .
(٩) المقنع في الغيبة: ٣١.
(١٠) ظ/ الإمام المهدي في مصادر علماء الشيعة: ١/ ٤١٣.
(١١) رسائل المرتضى : ١ / ٣١٠.
(١٢) ظ/ الذخيرة في علم الكلام، الشريف المرتضى: ٥٠٣ .
(١٣) ظ/ مقدمة تحقيق كتاب المقنع، السيد محمد علي الحكيم: ١١ - ١٥.
(١٤) المقنع: ٣١.
(١٥) ظ/ الذريعة ٢٢ / ١٢٣ ، ورجال النجاشي : ٤٣٩ رقم ١١٨٣.
(١٦) ظ/ المسائل العشر في الغيبة، الشيخ المفيد (٤١٣ه)، مقدمة التحقيق: ٢١.
(١٧) المقنع: ٢٢٠
(١٨) نفسه: ٣٣.
(١٩) نفسه: ٣٣-٣٤.
(٢٠) نفسه: ٣٤.
(٢١) نفسه: ٣٤- ٣٥.
(٢٢) نفسه: ٣٧.
(٢٣) نفسه: ٣٩.
(٢٤) المقنع: ٥٠- ٥١.
(٢٥) نفسه: ٥٠.
(٢٦) نفسه: ٥١.
(٢٧) تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي، ٣٣ ، دار الأضواء، بيروت، ط ٢) ١٤٠٩ ه ١٩٨٩ م.
(٢٨) المقنع: ٤٥ .
(٢٩) اكمال الدين واتمام النعمة: ٢/ ٤٣٤.
(٣٠) نفسه: ٢/ ٤٣٣.
(٣١) المقنع: ٥٢ .
(٣٢) نفسه: ٥٢.
(٣٣) نفسه: ٥٤.

(٣٤) ظ/ اكمال الدين واتمام النعمة: ٢/ ١٣٩ – ١٥٥ .

(٣٥) المقنع: ٦٢ .

(٣٦) نفسه: ٦٣.

(٣٧) نفسه: ٦٢

(٣٨) نفسه: ٦٣.

(٣٩) ظ/ كتاب الغيبة، الشيخ الطوسي : ٨٥.

(٤٠) نفسه

(٤١) المقنع: ٦٥ .

(٤٢) نفسه: ٦٨.

(٤٣) الاحتجاج ، الطبرسي: ٢/ ٤٩٥ .

(٤٤) ظ/ مقدمة تحقيق كتاب المقنع: ١٣ .

